الحركة الاستشراقية

وموقفها من مصادر العقيدة الإسلامية

دكتور/ خالد إبراهيم أحمد حسب الله *

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق وعوامل وأهداف نشأته :ـ

أولاً: مفهوم الاستشراق

الظاهـــرة الاستشراقية كأي ظاهرة فكرية أو علمية لها سلبياتها وإيجابياتها، وقد امتزج فيها الحـــق بالباطل ، كما أنها تتميز عن غيرها من الظواهر الثقافية الأخرى بمضامينها التي تتعلق بأمور حياتـــنا وقضايا ديننا ، ومن هنا كان من المناسب أن نقدم في البداية تصورا عن مفهوم الاستشراق وأســـبابه وغاياتـــه، لنكون على بينة من الأمر وحتى نستعين بهذا التصور في التعرف على الموقف الاستشـــراق من مصادر عقيدتنا الإسلامية، بما يتضمنه هذا الموقف من أبعاد مختلفة تتطلب القبول أو الرفض، وتستحق الإشادة والاستحسان ، أو الإدانة والنكران .

معنى الاستشراق اللغوي:ـ

يبدو أن مصطلح الاستشراق مصطلح حديث تولّد ودخل إلى قاموس لغتنا، حيث لا ذكر له في معاجمنا اللغوية القديمة، وقد أشارت بعض المصادر اللغوية الحديثة إلى ذلك بقولها: (استشرق: طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم ، مولّدة عصرية، يقال لمن يُعني بذلك من علماء الفرنجة)[1].

أما من ناحية الاشتقاق فهذه الكلمة منحوتة من مادة عربية أصيلة هي (شرق) حيث يقال: شَـــرَقَت الشـــمس شَرقا وشُروقا: طلعت .. وشرَّق: أخذ في ناحية المشرق . والشارق : الجانب الشرقي)[2].

والكـــلمة مـــن هذه الناحية الاشتقاقية (يمكن أن تعطينا مثالاً جليّا للكلمات التي يخضعها اللغويون والنقاد لدراسات عدة، ويستخدمها الأدباء في مدلولات متغايرة. هي عربية لاشك فيها، فهي مأخوذة من أصل عربي خالص (ش.ر.ق) ومصوغة على وزن عربي خالص هو الاستفعال)[3].

المفهوم الاصطلاحي:

---

* الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات العربية المتحدة – الإمارات العربية المتحدة.

تعددت وتنوعت تعريفات الباحثين والمفكرين لهذا المصطلح، وتقدم لنا هذه التعريفات عدة مفاهيم متقاربة ومتداخلة ومتكاملة في آن واحد، رغم ما بينها من اختلاف وبعد في كثير من الأحيان، وهي في جملتها تدور حول طبيعة العمل الاستشراقي وأهم أهدافه وميادين اهتمامه، والقائمين عليه، والمتوجه إليهم أو المخاطبين بهذا الفكر وعلاقته بالاستعمار وأدواته ، والبيئة التي خرج منها.. إلخ هذه الأمور التي انطوت عليها التعريفات الكثيرة للإستشراق. وسوف نذكر جملة منها لمفكرين عرب وغربيين لنرى مدى تقاربها وتكاملها، وأن الاختلاف البادي منها لا يعدّ جوهريا، ثم نحاول أن نستخلص من خلال هذه التعريفات أهم سمات وخصائص الفكر الاستشراقي.

فيما يختص بتعريفات المستشرقين والمفكرين الغربيين يطالعنا ما ذكره المستشرق البريطاني (أربري) من (أن كلمة مستشرق كانت في سنة ١٦٨٣ تعني: أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفي سنة ١٦٩١ استخدمها "أنتوني وود" في كلامه عن "صموئيل كلارك" بأنه استشراقي نابه، يعني بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية)[٤].

أما قاموس اكسفورد الجديد فيحدد المستشرق بأنه: من تبحر في لغات الشرق وآدابه.[٥]

ويقول المستشرق الألماني ألبرت ديتريس: إن كلمة مستشرق وهي كلمة حديثة تعني ذلك الباحث الذي يسعى إلى دراسة الشرق وتفهمه، ولكي يتسنى له ذلك يتوجب عليه دراسة اللغات الشرقية وإتقانها[٦].

ويرى (رودي بارت) أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة. وأن كلمة استشراق مشتقة من كلمة (شرق)، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي. أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافيا في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا. والمصطلح يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة.. كذلك تعرضت لفظة الشرق في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها، أو – إذا شئنا دقة أكثر– تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها.. ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا ضمن الشرق، ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب إفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس، وإن كان اسمه – الاستشراق– يفترض أنه يختص بالبلدان

الشـــرقية دون غيرها ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط والمهم هو الموضوع ذاته" [٧].

وأخيرا يقدم لنا (راينربيرن) تعريفا جديدا لعلم الشرق المرتبط بالعصر الحاضر فيقول: إنه العلم الذي يدرس الشرق دراسة شاملة في مجال العلوم الإنسانية والدراسات الإسلامية والشرقية بمعناها الواسع، والعلوم الاجتماعية بمفهومها الشامل أي الاجتماعية والقانونية والسياسية، والعلوم الطبيعية أي الزراعية والطبية والجيولوجية.. وأخيرا علوم الاقتصاد) [٨].

ويمكنـــنا القـــول هنا بأن هذه التعريفات الغربية للفكر الاستشراقي قد انطوت على عدة أفكار أساسية تتمثل في أن الاستشراق من حيث ما هيته علم، ومن حيث موضوعه الشرق، وأن المستشرق هو الذي يصطلح بهذا العلم ويكرس جهده في موضوعه بغرض الفهم الذي لن يتحقق إلا بإتقان لغة أو لغات شرقية[٩].

وأن هناك أدوارا تاريخية مر بها هذا المصطلح منذ ظهوره وحتى استقراره حتى رأينا خروجا على المفهوم التقليدي للإستشراق في تعريف (بيرن) الأخير الذي وسع من دائرة موضوعات علم الشرق المعاصر الذي يهتم ويركز على موضوعات معاصرة وحيوية إلى جانب الموضوعات المتناولة من قبل الاستشراق التقليدي. مما يؤكد استمرار الظاهرة الإستشراقية وتجددها وعدم نهايتها وأفول نجمها.

هـــذا عـــن تعريفات الغربيين للإستشراق، أما علماؤنا ومفكرونا فتتضح تصوراتهم حول المفهوم الاستشراقي من خلال التعريفات التالية لفريق منهم.

يحـــدد لـــنا المفكر الكبير مالك بن نبي المراد من المستشرقين بقوله: إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية[١٠]. أما شيخنا الغزالي رحمة الله عليه فيرى أن: الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث وهي أبعـــد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد ، وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه والافتراء عليه[١١].

وقريب من هذا ما ذكره الدكتور عبد العظيم المطعني في وصفه للمستشرقين بقوله: جيش آخـــر مـــن جيوش الحرب الباردة التي خاضتها وتخوضها أوروبا ضد الإسلام والمسلمين . جيش ســـلاحه القرطاس والقلم وقذائفه الكلمات، وغزوه موجه إلى العقول والقلوب، وهدفه إحداث

خلـــل في العقـــائد والسلوكيات والأخلاق. والمستشرقون والمبشرون صنوان لشجرة واحدة – ملعونة– هي الحقد على الإسلام والمسلمين[١٢].

ويـــرى الدكـــتور/ عمر فروخ أن الاستشراق صيغة مرتجلة تدل على الاتجاه نحو الشرق لدراسة وجوه الثقافة فيه من لغة وأدب وتاريخ وفقه وعلوم. غير أن الاستشراق اتسع مع الأيام في ناحية وضاق في ناحية ثانية ، لقد اتسع في الناحية الجغرافية إذ ضم إلى دراسة المشرق العربي دراسة المغرب العربي، ثم ضاق من الناحية الدينية إذا نصب اهتمام المستشرقين على الشعوب المسلمة[١٣].

أمـــا الشـــيخ حســـن حنـــبكة الميداني فيذهب إلى أن كلمة الاستشراق قد أطلقت على الدراســـات الـــتي يقـــوم بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأديانهم وتاريخهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك.[١٤]

بيـــنما يرى الدكتور الجليند أن لفظ الاستشراق يطلق على تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الحضارة الإسلامية وثقافة الشرق وعلومه.[١٥]

وأخـــيرا يقـــرر الدكتور محمد الدسوقي أن الفكر الاستشراقي يمثل قوة باغية من القوى المضـــادة للإســـلام والمســـلمين ، وينسحب مفهوم هذا الفكر على كل فكر غربي أو شرقي غير إسلامي عرض لتراث الشرق الديني والحضاري وبخاصة الشرق الإسلامي بالدراسة والبحث[١٦].

في ضـــوء ما قدمناه آنفا من تعريفات عربية للفكر الإستشراقي نستطيع أن نقول بأن هذه الـــتعريفات قد اتفقت فيما بينها على أشياء كما اختلفت وتمايزت في عدة أشياء، وأهم ما اتفقت عليه هو ذلكم المفهوم العام للاستشراق الذي يتمثل في الدراسات والمباحث التي توجه بها الغربيون لمعرفة الشرق بشكل عام من جميع جوانبه، كما اتفقت هذه التعريفات في أنها لم تعطنا تعريفا جامعا مانعا للإستشراق حيث ركز كل منها على زاوية خاصة ورؤية معينة لهذا الفكر الإستشراقي، مما يؤكـــد تقارب وتكامل هذه التعريفات التي يغطي كل منها جانبا من جوانب الفكر الاستشراقي، وبالتالي فإن تمايزها واختلافها ليس من قبيل التضاد بقدر ما هو من قبيل التنوع والتعدد.

ومـــن هنا فإن مما تمايزت به التعريفات السالفة الذكر أن التعريف الأول منها قد استخدم الإستشراق بالمعنى الخاص لا المعنى العام، ويوضح لنا الدكتور زقزوق هذين المعنيين بقوله: وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه في لغاتـــه وآدابه وحضارته وأديانه .. وكل ما يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي

يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق، وهو الشائع أيضا في كتابات المستشرقين المعنيين.(١٧)

وإذا كان التعريف الأول قد حدد مفهوم الاستشراق بالناس الذين يقومون به، فإن التعريف الثاني قد ركز على بعض أهداف الاستشراق وملمح من ملامح المنهج الذي سلكه ليعرفنا بالاستشراق من خلالهما، مع عدم تحديد هوية المستشرق الذي يقوم بذلك وبيان العلاقة بين الاستشراق والاستعمار الذي يقوم بتأجيرهم ورعايتهم.

أما التعريف الثالث فيتفق مع سابقيه في استخدام الاستشراق بالمعنى الخاص، كما أنه يتفق مع التعريف الثاني في التعريف بالاستشراق من خلال بعض أهدافه ووسائله، إلا أنه يختلف معه في تحديد هوية من يقوم بالعملية الاستشراقية وبيان صلتها بالعملية التنصيرية.

ويدور التعريف الرابع في فلك المفهوم العام للاستشراق مع الإشارة إلى خصوصيته في التوجه نحو الشعوب المسلمة في مرحلة من مراحله.

أما التعريفان الخامس والسادس فقد اتفقا في استخدام الاستشراق بالمعنى العام وتحديد الهوية الخاصة بالمستشرقين بأنها الهوية غير الشرقية أو الغربية. وهو ما يجعلهما يختلفان مع التعريف الأخير الذي جعل هذه الهوية شرقية وغربية، كما يتميز عنهما بتحديد الهوية الدينية ووصفها بأنها غير إسلامية، وإن كان يتفق معهما في استخدام الاستشراق بالمعنى العام. وعلى أية حال فيمكننا – من خلال التعريفات السابقة– استخلاص بعض السمات والخصائص للفكر الاستشراقي على النحو التالي(١٨).

١ــ الاستشراق يقوم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق بشكل عام وبالحضارة الإسلامية بشكل خاص .

٢ ــ المستشرقون طوائف وأصناف من دول وأجناس مختلفة حاولوا الإلمام بعلوم الشرق وتعلم لغاته.

٣ ــ الاستشراق أحد الأساليب التي استخدمها الغرب بغاية السيطرة على الشرق وإخضاعه للغرب .

٤ ــ حاول الاستشراق إشاعة كثير من التصورات والأفكار غير الموضوعية عن الإسلام والمسلمين مستخدما في ذلك منهجا لا يتسم بالأمانة العلمية ولا الحيدة الموضوعية غالبا .

٥ ــ مرور الفكر الاستشراقي بمراحل تاريخية مختلفة لكل منها خصائصها المعتبرة .

٦ ــ المستشرق قد يكون غربيا وهو الأصل وقد يكون شرقيا يحمل نفس الطبع الفكري للغرب ويقوم بنفس الدور ، وهو في الحالتين لا ينتمي للإسلام ولا إلى روح الحضارة الشرقية بوجه عام .

٧ ــ الاستشراق باعتباره ظاهرة ثقافية قد أسهم في تعريف الغرب بعلوم الشرق وحضارته .

عوامل الاستشراق وأهدافه:-

يعدّ بيان دوافع الحركة الاستشراقية وأهدافها التي نشأت في ظلها ووجدت من أجلها نقطة مهمة في موضوع الاستشراق توضح لنا الحكمة أو الغايات التي بذلت من أجلها هذه الجهود الكبيرة والمتنوعة من آلاف المستشرقين منذ أن ظهر الفكر الاستشراقي وحتى يوم الناس هذا.

وتبدو مشروعية الحديث عن غايات الاستشراق وأهدافه، من أن الغاية في الأغلب الأعم تخلق الدافع إلى العمل وتبرره وتدعمه ، كما أنها تسهم بقدر كبير في تحديد الآليات التي يجب استخدامها لتحقيق هذه الغاية، ومن هنا فإننا إذا لاحظنا تنوعا في أهداف الاستشراق، فإن لنا أن نتوقع تنوعا واختلافا في الدوافع ومن ثم في طرائق التنفيذ.[١٩]

ويخطئ من يظن أن الاستشراق أحادي الهدف أو أن هناك دافعا واحدا يقف وراء العملية الاستشراقية، بل إن هناك دوافع عديدة وأهدافا متنوعة للفكر الاستشراقي.

وتجدر الإشارة إلى ارتباط الدوافع هنا بالأهداف التي تتولد من هذه الدوافع وتنتج عنها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تلكم الأهداف المتنوعة للاستشراق لم تتبلور كلها في وقت واحد ولا دفعة واحدة رغم ما بينها من تشابك وتعاضد، ومن هنا فإن (هذه الأهداف كانت تتبادل الظهور على مسرح الاستشراق وتمثل دورها بصور وأنماط مختلفة تبعا للحقبة التاريخية أو المرحلة التي يمر بها الاستشراق منذ نشأته وخلال مراحل تطوره حتى اليوم، وأيضا وفقا لميول ودوافع المستشرقين الذين يمثلون كل مرحلة وطور، دون إغفال لما يخضع له المستشرق من توجهات من جانب المؤسسة التي ينتمي إليها ويعمل تحت إدارتها وحسابها ، ليسهم في تحقيق أهدافها المعلنة حينا والخفية في أغلب الأحيان منذ أن صار الاستشراق رسميا) [٢٠].

ولعـــل التنوع في أهداف الاستشراق راجع إلى "أن حركة الاستشراق وإن كانت محاضنها الأولى تكاد تكون دينية – حيث نشأت على أيدي الرهبان– إلا أنها خضعت لظروف وملابسات أخـــرى متعددة، فكانت أهدافها دينية تبشيرية مرة، وعلمية مجردة مرة، ومصلحية شخصية مرة، وخدمة استعمارية مرة أخرى. ولا شك أن اختلاف قدراتهم وتباين أهدافهم هذه أدى إلى إنتاجية تتناسب وهذه القدرات والأهداف" [٢١].

ولـــنا نستطيع – في بحث كهذا – أن نفصل القول في بيان هذه الدوافع والأهداف، وإنما نقتصر على بيان أبرزها بشكل إجمالي فيما يلي.

أولاً : الأهداف الدينية : ــ

يستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لايدع مجالا للشك أن الهدف الديني كـــان وراء نشـــأة الاستشـــراق ودعـــم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية [٢٢].

وعلى هذا فقد كان السبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوربيين إلى الاستشراق هو سبب ديـــني في الدرجة الأولى، فقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوربيين ما تركت من آثار مرّة عميقة..

وجـــاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي ، فشعر المسيحيون بروستانت وكاثوليك بحاجة مـــلحة لإعـــادة النظر في شرح كتبهم الدينية ومحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضـــت عـــنها حـــركة الإصلاح، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت بهم إلى الدراســـات العربية فالإسلامية، لأن الأخيرة كانت ضرورة لفهم الأولى وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العبرية[٢٣] .

ومـــما يؤكـــد ما قررناه هنا أن بدايات حركة الإستشراق ظهرت على يد بعض القساوسة والرهبان الذين قاموا بجهود فردية في دراسة الإسلام خاصة ولغته العربية وآدابها ، ثم دعمت هذه الجهـــود وعززت بواسطة الكنائس الغربية والبابوية في روما بوجه خاص.وانطلقت بواكير العمل الاستشـــراقي في ظل كم هائل من الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين ورثة الغرب المسيحي عن أجيال سابقة، وفي ظل الرعب والخوف الغربي من المدّ الإسلامي الذي دعمته الفتوحات الإسلامية

وبلغ قمته – مرحليا– بعد اندحار الغرب في الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م) . وهنا أصبح الهدف الديني للإستشراق له ما يبرره.(٢٤)

ومـــن هنا فقد تنوعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين وتعددت اهتماماتهم بالإسلام وحضارته، فمن دارسي للعقيدة وأصولها ، وللفقه وأصوله، وللتاريخ وحضارته، وللقرآن وعلومه، وللحديث ورجاله، واللغة وآدابها، والرسول وغزواته وعلاقته بأهل الكتاب في المدينة، كما أرادوا أن يتعرفوا على أسرار هذه العقيدة التي جعلت من المسلم فدائياً في جهاده ضده الصليبيين، حتى إذا ما تعرفوا على هذه الأسباب ووقفوا على أسرار هذه العقيدة عادوا إلى أصحابها بالتشكيك في عظمـــتها، وليسلبوا المسلم سر قوتها ليصبح بعد ذلك سهل التناول في أيديهم، يشكلون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية، وحسب مكرهم السياسي والمذهبي، ولقد أفصح بعضهم عن هذا الهدف في بعض المؤتمرات بقوله: لا نريد أن نرسل إلى الشرق جنوداً مسلحين وإنما نريد لهم رسلا مبشرين بالنصرانية.(٢٥)

وهـــذا يعـــني أن هناك تخطيطا استشراقيا مستمرا يهدف إلى صياغة إسلام جديد "إسلام مسيحي" يفتقد ركائزه الثابتة، ويضمن الحفاظ على ضياع المسلمين وتخلفهم الحضاري.

وهـــذا هو الهدف الاستشراقي الثابت وهو ما يجب أن تقف الدعوة الإسلامية ضده بكل ثبات وصمود، لكي تحافظ على الإسلام القرآني الذي أنزله الله تعالى، ولكي تعيد إلى معالمه الثابتة الواضـــحة قوافل البشر التائهين ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يجهلون حقيقته ، أو ممن ينتمون إلى أديان ومذاهب أخرى.(٢٦)

ومما يؤكد وثبات الهدف الديني لدى كل المستشرقين– على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم – مـــا يقوله أحد الباحثين من أن "المدارس الاستشراقية قد تفترق افتراقا توضح حدوده المصالح السياسية لكل بلد أوربي، ولكن هذه الحدود تكاد تلغى حين نجد أن الروح النصرانية تجمع القدر الأكـــبر من المستشرقين الغربيين، وقد فسر لنا هذا كيف انتهج البريطانيون بانتصارات خصمهم نابليون، وهو يفسر أيضا هذا التكامل بين المدارس الاستشراقية رغم ما بينها من اختلافات سياسية أو قومية أو سوى ذلك.(٢٧)

بهـــذه الـــروح النصرانية أصبح العداء للإسلام وعالم الإسلام هو التيار الرئيسي في حقل الاستشراق.(٢٨)

ولقد دفعت هذه الروح النصرانية المستشرقين للتعاون مع المنصرين والسعي معا إلى محاولة تشكيك المسلمين أنفسهم في عقيدتهم وإضعاف روحهم المعنوية حتى تسهل السيطرة عليهم واللعب بمقدراتهم .

ويمكننا تلخيص ما سبق- فيما يتعلق بالهدف الديني – بالقول على لسان أستاذنا الدكتور زقزوق بأن الهدف الديني للاستشراق كان يسير منذ البداية في اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل معا جنبا إلى جنب، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتي:-

١- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه، وإبرازها والزعم بأنه دين مأخوذ من النصرانية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه.. إلخ.

٢- حماية النصارى من خطره بحجب حقائقه عنهم، واطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستلام لهذا الدين.

٣- التبشير وتنصير المسلمين وقد كان قرار فينيا الكنسي في ١٣١٢م، وقرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبردج بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون، وتأسيس مجلة العالم الإسلامي عام ١٩١١م عن طريق "زويمر" رئيس المبشرين في الشرق الأوسط – كانت هذه بعض الشواهد الظاهرة في اتجاه خدمة الهدف الديني والعمل من أجله في محيط الاستشراق.[٢٩]

ثانياً الأهداف السياسية والاستعمارية:-

لا تنفصل الأهداف الاستعمارية للاستشراق عن الأهداف الدينية كثيرا حيث زكّت الأخيرة روح العداء في قلوب الغربيين تجاه الإسلام وأهله، حتى سيطر على القوم هناك شعور قوي بضرورة محاربة الأمة الإسلامية لا عن طريق التنصير فحسب بل عن طريق الحروب العسكرية واحتلال البلاد الإسلامية، إلى جانب الحرب الثقافية المعلنة أيضاً.

وإبّان هذه المرحلة الاستعمارية والعصرية تكشفت أوروبا الفكر الإسلامي مرة أخرى كما يقول مالك بن نبي: لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها.[٣٠]

واستعدادا لذلك كان لابد من أن تجول طلائع الغرب في البلاد التي يجب قهرها واحتلالها وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربية وغيرها من لغات الشرق (المستشرقين) لكي يستطيعوا التحدث إلى الشعوب والبحث في الآثار، والتعرف على الأفكار، والقيام بالدعايات وإثارة المنازعات، وإشعال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة بين مخالب الاستعمار.[٣١]

وإذا كان للساسة الغربيين فضل في التنظير لهذه الأهداف السياسية، ورسم الخطط، وتعبئة الشعور الغربي لتأييدها ودعمها، وتكريس الإمكانات المادية والعلمية والمعنوية لخدمة هذه الأهداف، فإن الاستشراق قد اضطلع بمهمة أساسية في هذا المجال ، من حيث قدم المستشرقون إلى هؤلاء الساسة الدراسات والبحوث الشرقية في مجال التاريخ والنظم السياسة والاقتصاديات الشرقية، والاجتماع واللغة والدين والعلم والفن والأدب، مما اعتبر مادة أساسية صالحة لأن يقوم عليها هذا التنظير.[٣٢]

ومن هنا كان هذا الوفاق تاما بين الاستشراق والاستعمار حيث ساعد أحدهما الآخر مساعدة فعالة.[٣٣]

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين.[٣٤]

ولقد ظل هدف الاستشراق والاستعمار واحدا لفترة طويلة من الزمن، وإذا كان الأول يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعين أمنه، يصيب أهدافه ويحقق آماله، فما عليه إلا أن يبدأ بالتشكيك في قيم الشعوب المغلوبة، والسخرية منها ومن دينها وشخصية نبيها عليه الصلاة والسلام، وهدم الإسلام فكريا وحضاريا. وعلى الثاني أن يقوم بتنفيذ ذلك الحكم واقعيا وعمليا.[٣٥]

إضافة إلى ذلك فإن عددا من المستشرقين في فرنسا وانجلترا كانوا يعملون مستشارين للوزارات المختصة بشئون الاستعمار.[٣٦]

وبعد حركة التحرير التي سادت شعوب المنطقة العربية حرص الاستعمار على أن يكون له بين هذه الشعوب من يتولى تنفيذ مخططه والقيام على شؤون مصالحه، فعين في سفاراته وقنصلياته مستشارين لهم من ذوي الخبرة والمعرفة بالشرق وعلومه، وكان المستشرقون من أهم العناصر التي قامت بهذه المهمة وكان نشاطهم السياسي ملحوظا في جميع البلاد التي عملوا بها.[٣٧]

ثالثاً: الأهداف العلمية: ـــ

يعتبر العالم العربي كنزا حضاريا لا نظير لـــه في بقاع العالم الأخرى، ففيه شيدت حضارات وثقافـــات، ونشأت لغات وفلسفات وولدت علوم وفنون ، ونزلت شرائع وأديان[٣٨] ، لذا فقد كانـــت الدوافـــع العلمية ذات شأن عظيم في حركة الاستشراق خصوصا في توجهها نحو الشرق العـــربي الإســـلامي، من حيث تميز هذا الشرق عن العوالم الشرقية الأخرى بخصوصية وتفرد في حضـــارته وثقافـــته ، إلى جانـــب قربه الشديد من أوروبا، وعلاقتها المتوترة به فيما قبل الحروب الصـــليبية وأثناءها وفيما بعدها، وكونه بحضارته وعلوما وديانته يمثل خطرا قائما أو محتملا يهدد الغرب.[٣٩]

مـــن هنا أيقن الغرب أنه لابد لـــه أولا إذا أراد النهوض أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها، خصوصا حضارة الإسلام وما حققه هذا الدين ورجاله من أهداف سياسية واجتماعية وأخلاقـــية وثقافية، فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بنهم وشغف، وانطلق كثير منهم إلى آفـــاق بـــناءه اســـتفاد مـــنها الشرق والغرب على حد سواء. ومن الجلي أن الباحث على هذه الدراســـات في أول الأمـــر كان دينيا وحربيا في القرون الوسطى، ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة.[٤٠]

والفقـــرة الأخـــيرة في الـــنص السابق تسوقنا إلى التذكير بحقيقة مهمة والتأكيد على أن الاستشـــراق لـــيس شـــرا كلـــه، كمـــا يعتقد البعض ممن ترسبت في نفوسهم الكراهية للغرب الاستعماري، حتى أغلقوا وأيقنوا أن كل ما يهب من الغرب لا يمكن إلا أن يكون رياح المؤامرات والـــدس والفتن والكيد للإسلام والمسلمين، وفي هذا ظلم كبير لبعض المستشرقين ولأنفسنا أيضا، لأننا بهذا الموقف نحرم ثقافتنا الإسلامية من ثمار عقول لا يحركها إلا حبها للحقيقة ، ونقيم حاجزا بين أنفسنا وبين علماء ينفقون سنوات عمرهم في محاولة الاقتراب منا واستيعاب ثقافتنا وفهمها[٤١]

لذلك ينبغي أن نعترف كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي[٤٢] بكل وضوح وصراحة: أن عـــددا مـــن المستشـــرقين كرسوا حياتهم وطاقاتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات، دون تأثير عوامل سياسية واقتصادية أو دينية ، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعـــلم، حـــتى بذلوا فيه جهودا ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها.

وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشـــر والإذاعـــة، وأصبحت مصونة من الورثة الجاهلين وعاهة الأرضة، وكم من مصادر علمية ووثـــائق تاريخـــية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهوده وهمتهم، وقرت بها عيون العلماء في الشرق. وهذه إشارة إلى ناحية من النواحي الإيجابية للحركة الاستشراقية التي لا ينبغي التقلـــيل مـــن شأنها أو غض الطرف عنها، كما لا ينبغي تضخيمها أو الانطلاق منها للحكم على الفكر الاستشراقي بالخيرية أو الإيجابية في شتى مجالاته وكل ما صدر عنه .

المبحث الثاني: الوحي والنبوة في نظر المستشرقين : ــ

يرتـــبط موقـــف المستشرقين من القرآن والسنة – باعتبارهما المصدرين الأساسيين للعقيدة الإســـلامية – بموقفهم من نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام ارتباطا جذريا ويتعلق بفهمهم الحقيقة الوحي وطبيعته تعلقا أساسيا، لأن إنكارهم النبوة محمد ﷺ، أو فهمهم للوحي فهما خاطئا يترتب علـــيه القول ببشرية مصادر العقيدة الإسلامية، وبالتالي يصبح القرآن والسنة – حسب زعمهم– مـــن تألـــيف محمـــد ، وينتفي عنهما صفة الوحي السماوي. لذا كان لابد لنا من وقفة هنا مع المستشـــرقين حـــول تصورهم عن النبوة والوحي بشكل خاص لتعلق ذلك بالحديث عن مصادر العقـــيدة الإسلامية كما ذكرنا آنفا، وبالتالي لن نتطرق إلى موقفهم من شخصية الرسول وسيرته وأخلاقـــه حـــتى لا تخرج عن إطار هذا البحث المهتم ببيان موقف المستشرقين من مصادر العقيدة الإسلامية فقط.

لقـــد ركز المستشرقين جل جهودهم ، وبذلوا قصارى جهدهم في الوصول إلى نفي النبوة وســـلبها عن رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به نتاج بشري وليس من عند الله تعالى. ولذا حاولوا أن يفسروا الوحي تفسيرا يؤدي إلى هذا الزعم الجائر والضلال البيّن.[٤٣]

ويرى بعض المعاصرين أن المستشرقين في موقفهم من نبوة نبينا ﷺ ينقسمون أربعة أنواع:

١– فريق منهم يؤمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق قولا وعملا، وأنه أوحي إليه حقا وهؤلاء عددهم قليل جدا.

٢– فريق آخر يعتقد أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم مخلص قولا وعملا، ولكن كان يخبر بما خيل إليه أنه رآه أو سمعه، وهو في حالة غيبوبة.

٣- وفـريق ثالـث يعـتقد أن محمدا جمع مأثورات يهودية ومسيحية ، وأساطير دينية قديمة، وروايات شعبية شفوية، ثم نشرها في قومه على أنها وحي من عند الله عز وجل.

٤- وفـريق رابع يقف من محمد صلى الله عليه وسلم موقف المرتاب أو الجاحد المنكر في جزم متهكم.(٤٤)

وهكذا تتنوع المواقف وتختلف الآراء الاستشراقية حول النبوة والوحي، فما الذي أنتجته عقولهم وكتبته أيديهم من شبه متعلقة بالوحي والنبوة؟ وما الذي أتى به المستشرقون من تأويلات وتفسـيرات لظاهـرة الوحي الإلهي؟ قبل أن نجيب على ذلك نقدم بين يدي هذه الإجابة بكلمة نوضـح مـن خلالهـا مفهوم النبوة والوحي في التصور الإسلامي لنرى مدى قرب التفسيرات الاستشراقية لكليهما مما قرره الإسلام بخصوصهما.

يعـتقد المسـلمون أن النـبوة محض فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده، وأنها ليست باستحقاق أو طلب أو استجماع شروط معينة أو حصول رياضات خاصة، ولقد قرر علماء الأمة أن النبوة لا تنال بمجرد الكسب بالجد والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات، لكنها فضل من المولى الأجل يؤتيه من يشاء من عباده، من سبق علمه وإرادته باصطفائه بها مصداقا لقولـه سـبحانه "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ " الحج: أية (٧٥)، وهو تعالى أعلم حيـث يجعل رسالته التي يختار لها من صنعهم على عينة واصطفاهم لنفسه يقول الإمام الماوردي : (ولم تزل أمارات النبوة لائحة في رسول الله ﷺ حيث تدرج إليها وهو غافل عنها، وغير متصنع لها، فنهض بأعبائها حين أتته وقام بحقوقها حين لزمته، غير ذاهل فيها ولا عاجز عنها، إلى أن تكامل به الشـرع فـتم على أصل مستقر وقياس مستمر، لا يدفعه عقل ولا يأباه قلب ولا تنفر منه نفس، وهـذا وهو أمي لم يقرأ كتابا ولا اكتسب علما، فأوضح كل ملتبس، وبين كل مشتبه، حتى رجع كـثير مـن الملـل إلى شريعته في علم ما قصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها وبين أحكامها، وما ذاك إلا بعون إلهي وتأييد لاهوتي، وحسبك بهذا شاهدا لو اقتصرنا عليه، وحجاباً لو اكتفينا به)(٤٥).

هـذا عن النبوة أما الوحي في المفهوم الشرعي فهو إعلام الله تعالى رسولا من رسله أو نبيا من أنبيائه -بصورة سرية خفية غير معتادة للبشر- ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبي أو

الرسول العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به. ويمكننا من خلال هذا المفهوم الشرعي للوحي الإلهي أن نستخلص عدة حقائق مهمة منها:-

١- أن حقيقة الوحي الشرعية تتمثل في إعلام الله تعالى إلى أنبيائه، فلا يكون مصدره إلا من الله ولا يتلقاه إلا نبي، فهو متميز إرسالا واستقبالا وله صفته الخاصة.

٢- أن ظاهـــرة الوحي الشرعي ناموس إلهي يتلقى به جميع الأنبياء والرسل ما يلقى إليهم من إعلام.

٣- أن مـــا يلقى بالوحي من كلام أو معنى يحتل في ذات الرسول أو النبي مركز العلم اليقيني القاطع بصحة التلقي عن الله بحيث لا يعتري نفسه أدنى تردد أو شك في ذلك .

٤- أن الوحي إعلام من الله المحيط بكل شئ علما.

٥- أن الرسول أو النبي الذي يتلقى هذا العلم الإلهي لا يكون لإرادته أو اختياره أدنى تدخل في مضمون ما يلقى إليه، أو في لفظه إن كان الموحي لفظا، وفي نفس الوقت يكون هذا المتلقي مستجمعا لكامل شعوره الفكري والوجداني حول ما يلقى إليه من علم.(٤٦)

٦- الوحـــي في مفهومـــه الديني الصحيح ظاهرة روحية خص الله بها من اصطفاهم للنبوة وبه يكون اتصالهم بالله من غير حلول ولا اتحاد.(٤٧)

٧- ظاهـــرة الوحـــي الشـــرعي لا يمكن إثبات ما فيها من اتصالات روحية بالملكوت الأعلى باستخدام العقل والحس فقط، وإنما يجب علينا التسليم بها باعتبارها مسائل اعتقادية غيبية ليست خاضعة لمناهج المستشرقين المتصفة بالمادية والتي لا تعترف بالقضايا الغيبية.(٤٨)

وإذا كـــان هـــذا هـــو التصور الإسلامي لمفهومي الوحي والنبوة ففي المقابل نجد نفرا من المستشـــرقين يتحدثون عن الوحي والنبوة كما يتحدث الناس عن الدروشة والدراويش، أو كما يـــتحدث علماء النفس عن أبطال التاريخ وعظماء الرجال وقادة الثورات، أو عما ينفرد به بعض الناس من خصائص العيون والآذان الداخلية، يلتقطون بها ما لا يتمكن الإنسان العادي من سماعه أو رؤيته وهذا ما قاد الإنسان إلى تجارب الدين.(٤٩)

ولعل في ذكر أو استعراض ما أتى به المستشرقون من أقوال وتفسيرات للوحي والنبوة ما يوضـــح مـــا ورد مجملا في النص السابق، وسوف نرى من خلال ذلك أنهم عكسوا القضية تماما

وخالفوا التصور الإسلامي الناصع والواضح للنبوة والوحي، كما أنهم أثاروا كثيرا من الشبه حول الوحي والنبوة المحمدية تنوعت فيها أقوالهم وتعددت آراؤهم.

وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نستقصي كل ما قالوه أو أن نحيط بكل ما أثاروه من شبه وأباطيل ، ولكننا سنكتفي بذكر نماذج فقط من هذه الشبه الاستشراقية محاولين بيان وجهة نظر أصحابها ثم الحكم على ما ذهبوا إليه وتفنيد ما اعتمدوا عليه من أقوال زائفة وأراء مضللة هنا بعون من الله وتوفيقه.

١- الشبهة الأولى : النبوة كسبية ورسالة بشرية إصلاحية : —

يعتقد كثير من المستشرقين أن نبوة سيدنا محمد ﷺ نبوة عادية مجردة عن التأييد الإلهي، وأن نفس النبي قد تطلعت إليها ، وتشوفت إلى بلوغها، لذا شرع محمد ﷺ في إعداد نفسه لذلك حتى يحقق ما تمنى، وبينما كان بعض معاصري النبي — كما يقول (بروكلمان)- كأمية بن أبي الصلت شاعر الطائف ، وهي بلدة بخلاء مكة يكتفون بوحدانية عامة، كان محمد يأخذ بأسباب التحنث والتنسك، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي ليالي بطولها في غار حراء قرب مكة. لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة فكان يضج في أعماق نفسه هذا السؤال: إلى متى يمدهم الله في ضلالهم، مادام هو عز وجل قد تجلى آخر الأمر للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصية.(٥٠)

ويسير المستشرق (أرفنج) في نفس الاتجاه فيقرر أن محمدا لما رأى الوثنية المنشرة حينئذ في بلاد العرب صار أكثر تفهما واحتقارا لهذه الوثنية. واعتقد محمد أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية مرة أخرى، فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء، فأصبح في حاجة إلى نبي جديد بوحي من الله ليهدي الناس إلى الطريق القويم ويعيد الكعبة إلى ما كانت عليه زمن إبراهيم ، كانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائما وأثرت في أعماله وأفعاله، فقد كان كثيرا ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه في جبل حراء.. وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح ، فأخذ يفكر في الأحلام وعالم الغيب . وظل محمد ستة شهور يرى في أحلامه ما يفكر فيه وهو متيقظ، فكان غالبا يفقد رشده ويستلقى على الأرض وكأنه فاقد الوعي.(٥١)

وينفي المستشرق الألماني (هوبرت جريمي) النبوة الشرعية عن سيدنا محمدﷺ ويصف رسالته بأنها كانت دعوة للإصلاح لا في مجال العقائد ولكن في الميدان الاجتماعي فيقول: لم يكن محمد في بـــادئ الأمر يبشر بدين جديد، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . فالإسلام في صورته الأولى الأصـــلية لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه ، ذلك لأننا لو نظرنا إليه عن كثب نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية، بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغـــيير الأوضـــاع الفاسدة ، وعلى الأخص إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المطهدين.. لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين ، وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته.[٥٢]

تعقيب ورد:

أ- التصـــور الـــذي قدمه هذا النفر من المستشرقين هنا عن النبوة المحمدية تصور يتناقض مع مفهوم النبوة في الإسلام الذي ألمحنا إليه في بداية هذا المبحث، والذي يقوم على الاصطفاء الإلهـــي والاجتـــباء الـــرباني لبعض خلقه دونما تطلع منهم للتحقق بمقام النبوة ، أو سعي لإدراكها ونيل شرفها.

ولم يعتمد هؤلاء المستشرقون في تفسيرهم السابق للنبوة على أي دليل علمي أو تاريخي يعضد مذهبهم ويقوي رأيهم ، فلم يرد في الصحيح من كتب السنة والسيرة أن محمداﷺ كان يرجو أن يكون نبيا، ولم ينقل إلينا ذلك ولو على لسان خصومه وأعدائه إبّان ظهـــور الإسلام. وصدق الله القائل: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) القصص: ٨٦.

ب- لو كانت النبوة أمرا كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغـــار، ومـــا صـــوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، والوجدان الملتهب، والقلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده ، تجلى له رجاؤه له واعتقاده بما تم به مراده، لظهر عقب كـــل مـــا كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة، فكرته الوقادة في سورة أو سور من أبلغ سور القـــرآن.. ولكـــنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شئ، ولا تحـــدث إلى أهـــل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه

عنه.. فهذا السكوت وحده في فترة انقطاع الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه، واستعداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه، والاختبار الذي توهموه.(٥٣)

ج- إن الله تعالى جعل استعداد محمدﷺ للنبوة والرسالة فطريا وإلهاميا لم يكن فيه شئ من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي ... وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي، فلاشك في أنه كان عملا كسببا مقويا لذلك الاستعداد الوهبي ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شئ من عباداتهم ولا عاداتهم ، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس، والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها.(٥٤)

د- أما ما ذهب إليه (هوبرت جريم) وأمثاله من أن النبي لم يكن في بداية أمره يبشر بدين جديد، ولكنه تأثر بما يعانيه مجتمعه من فوارق طبقية فنشر دعوته الإصلاحية وفرض الزكاة لإعادة تقسيم الثروة بين أفراد مجتمعه. فهو تفسير مادي مبستر ومتعسف أراد به صاحبه تطبيق النظريات الماركسية والمادية الحديثة على نشأة الديانة الإسلامية.. ثم إن الإسلام لم يأت فقط للإصلاح الاجتماعي ، ولكنه جاء نظاما متكاملاً شاملا لمناحي الحياة كلها دينا ودولة .. وبالتالي فإن تفسير ظاهرة الوحي ونشأة الدين الإسلامي تفسيرا ماديا صرفا، لا يلاقي القبول العلمي الصحيح، ولا يمكن الاستناد إليه في نفي نبوة الرسول العربي ليجعل منه (جريم) وأمثاله مصلحا اجتماعيا يدعو إلى الاشتراكية فحسب .(٥٥)

ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة في أساسها، إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذي جاء به القرآن وحيا من الله إلى رسوله محمدﷺ ، حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجا متكاملا جامعا رباني المصدر مما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو، وهو في قدرته على البقاء غضا طريا مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل في كل عصر وبيئة، وعدم اصطدامه بالمتغيرات والمتحولات ليؤكد كذب الإدعاء بأنه من إدعاء محمد أو من صنع البشر.(٥٦)

الشبهة الثانية: الوحي ذاتي وظاهرة هلوسية : ـــ

ذهب المستشرقون مذاهب شتى في تفسير ظاهرة الوحي الخاصة بنبينا محمدﷺ ، فمنهم من ادعى أنها نوبات صرع أو جنون، ومنهم من لم يسلم بذلك ولكنه رأى أن الوحي المنزل على محمد ﷺ لون من ألوان الهلوسة، بينما رأى فريق ثالث من المستشرقين أن محمدا كان صادقا فيما يقول وأنه برئ من الصرع والهلوسة، إلا أن الوحي الذي صاحبه كان من إشراقات روحه وفيض ذاته وصفاء نفسه بعد أن تحنث في غار حراء، وبالتالي فهو وحي نفسي داخلي لا خارجي إلهي، ناتج عن اللاشعور أو الوعي الخلاق أو غير ذلك.

وتلتقي كل هذه التصورات الاستشراقية حول الوحي عند نقطة أو حقيقة واحدة تجمع كل هذه الآراء في سلة واحدة، وفي الوقت نفسه تجعلنا نختلف معهم . هذه الحقيقة أن الوحي سواء كانت نتيجة صرع أو هلوسة أو إشراق روحي فهو في النهاية بشري ذاتي داخلي، ومن هنا فقد صار الخلاف بيننا وبين هؤلاء المستشرقين – كما يقول الشيخ رشيد رضا[٥٧] متمثلا في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلا عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضا منها كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني مستقل نزل من عند الله على النبي ﷺ كما قال عز وجل: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ). الشعراء :١٩٢-١٩٥، وفي تخيل الملك بزعمهم.

أ- في كتابه حياة محمد يقول (أرفنج) واصفا حال النبي ﷺ أثناء نزول الوحي عليه بأنه غالبا ما كان يفقد رشده ويستلقى على الأرض وكأنه فاقد الوعي. وكانت خديجة زوجته المخلصة ترقب محمدا في وحدته وتعبده بعين من القلق.. وينسب بعض خصوم محمد هذه الأحوال إلى حالات صرع كانت تنتابه، ولكن المسلمين الأتقياء يعتبرونها من دلائل النبوة، وأنها نتيجة لتأثير الوحي على روحه.[٥٨]

ثم يقول بعد ذلك: ناقش الدكتور (جوستاف ويل) مسألة تعرض محمد لحالات من الصرع، وهي المسألة التي يثيرها خصومه من الكتاب المسيحيين، ويبدو أن بعض المؤرخين المسلمين القدامى قد أيدوها فذهبوا إلى أن محمد كان يصاب برعدة عنيفة، ثم بنوع من الإغماء أو التشنجات ، وفي خلال ذلك ينحدر من جبهته سيل من العرق البارد، فكان يرقد وعيناه مغلقة وقد انتشر الزبد حول فمه ويجأر مثل البعير[٥٩].

ولقد تزعم المستشرق النمساوي (الويز شبرنجر) والألماني (جوستاف فايل) وغيرهما أن نبينا ﷺ كان مصابا بحالات من الصرع يهيب فيها عن الناس وعما حوله ، ويظل ملقى على أثرها بين الجبال لمدة طويلة يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم ويتصبب عرقا ويثقل جسمه وتعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة ، فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه ما يزعم أنه وحي من الله.[٦٠]

ب- لا يسلم المفكر الفرنسي (جوستاف لوبون) بمقولة الصرع هذه ويتشكك فيها قائلا: وقيل إن محمدا كان مصابا بالصرع، ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهيّ فغطيط فغشيان.[٦١]

إلا أنه على الرغم من ذلك يفسر الوحي بأنه نوع من هوس المفتونين فيقول: ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية وذلك كأثر مؤسسي الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك، فأولوا الهوس وحدهم لاذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس .. وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول وأثاروا الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر.[٦٢]

جـ- ويذهب المستشرق البريطاني (مونتجمري واط) في دراسته لنبوة النبيﷺ مذهبا آخر غير ما ذكرنا آنفا. وقد سار منطقه في دراسته هذه في ضوء عدة نقاط يسلم بها (واط) على هذا النحو الذي يقدمه لنا الدكتور إدريس[٦٣] فيما يلي على لسان (واط):

١- أنا مؤمن ولست ماديا ولا مشركا.

٢- أعتقد أن محمدا صادق فيما يقول وأمين.

٣- وأنه ظل محتفظا بقواه العقلية إلى النهاية، فهو لم يكن إذن مريضا بصرع أو غيره من الأمراض التي تقدح في قوى الإنسان العقلية .

٤- محمد الصادق الأمين الوافر العقل هذا يقول إنه رسول الله وإن القرآن وحى أوحاه الله إليه وأنه إذن ليس من اختراعه ولا جاء نتيجة لتفكيره.

٥- لكن لا يلزم من صدق الإنسان أن يكون مصيبا فيما يقول، بل يمكن أن يكون صادقا ومع ذلك مخطئاً.

٦- إذن محمد مخطئ في ظنه أن القرآن وحي يأتيه من الخارج بواسطة ملك.

٧- وإذن فالقرآن صدر عن جهة من جهات نفسه وتلك الجهة هي اللاشعور الجماعي. وإذا كان اللاشعور أو اللاوعي الجماعي هو مصدر الوحي الذي صرح به نبينا ﷺ ، في المقصود بهذا اللاوعي الجماعي؟ لشرح ذلك يقول لنا واط إن اللاواعي الجماعي في عمومه رأي " يونج " وهو رأي يقول :

إن مـــا ينبـــثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من (اللبيدو) أو طاقة الحياة،وهو ينبوع المناشط في كل الناس. في الشخص الواحد يكون اللبيدو في أحد أجزائه شيئا خاصا وفي الجزء الآخر شيئا مشتركا بينه وبين أفـــراد جماعـــته ثم بينه وبين الجنس البشري كله. هذا الجزء المشترك بينه وبين الآخرين هو الذي يســـميه (يونج) باللاوعي المشترك ، وإلى هذا اللاوعي المشترك تعزى كثير من الأساطير وكذلك المعـــتقدات الدينية، ولاسيما شخصيات مثل البطل والقائد والطفل الإلهي والعذراء التي توجد في كثير من الأديان.

ولتطبـــيق هـــذه النظرية العامة على الوحي المحمدي يقول (واط) إن هذا يعني أن كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعيا بها، ثم يقول: إنه يمكن الجمع بين هذه المسألة وبين الآراء الإسلامية التقليدية بأن نقول بأن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي يسمى باللاوعي وأنها برزت من هنا إلى وعيه [٦٤].

وهكذا يلتقي (واط) مع أضرابه من المستشرقين في نفي حقيقة الوحي الشرعية كما هي في التصـــور الإسلامي على الرغم من اعترافه بنبوة النبي وصدقه وأمانته وعدم تسليمه بإصابة النبي بالهلوسة والصرع وغيرهما من الأمراض العصبية.

مناقشة ونقد:

أولاً: الصرع أكذوبة بمنطق العلم وشهادة الواقع

أ- ما ذهب إليه كثير من المستشرقين في تفسيرهم للوحي المحمدي على أنه نتيجة لنوبات من الصرع أصيب بها محمد ﷺ زعم باطل وخطأ علمي فاحش، فإن أعراض الصرع تختلف كل الاختلاف عما كان يعتري النبي ﷺ عندما يأتيه الوحي. فالصرع مرض مصحوب باصفرار الوجه وبرودة في الأطراف واصطكاك في الأسنان، ويتعطل تفكير المصروع وإدراكه تماما

ويدخل في غيبوبة كاملة، فلا يدري أثناء نوبته ما يدور حوله، وتعتريه تشنجات وينسى ما حدث له خلال ذلك نسيانا تاما.

أما ظاهرة الوحي المحمدي فإننا وكما يقول الدكتور دراز رحمة الله عليه: نرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينهما وبين تلك الأعراض المرضية، والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتصطك الأسنان وتنكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لأنها – أي ظاهرة الوحي– كانت – كما صح في الروايات– مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجئ معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته.[٦٥]

ب– وإذا كانت هذه هي شهادة العلم فإن الواقع كذلك يكذب هذه الفرية الاستشراقية ، ويمكننا أن نتساءل – مع أحد الباحثين– قائلين: أمجنون مصروع يبني دولة، وينشئ نظاما، ويقيم دينا يعيش في أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل؟

أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيدا في وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء؟ .. ثم أمجنون مصروع مختلط هذا الذي يأسر قلوب معاشريه، ويملك أنفسهم، فإذا القلوب خافقة بحبه وإذا النفوس لا تعرف غذاءها إلا من ينابيع الحب والولاء والتفاني؟

إن التاريخ لا يذكر في سجله يوما أن إنسانا كان له في الناس رصيد من الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب.[٦٦]

ونتساءل نحن من جانبنا قائلين: أتصدر كل هذه الأحكام والتكليفات والتشريعات الإسلامية التي لبت مطالب الإنسان الروحية والفكرية والوجدانية والجسدية.. إلخ عن رجل مجنون؟

وهل يعقل أن تكون هذه المنظومة الإسلامية بما اشتملت عليه من نظام عقائدي وتعبدي وأخلاقي واجتماعي واقتصادي وسياسي يعجز الناس عن مضاهاتها والإتيان بمثلها نتيجة هلوسة أو نوبات صرع وتشنجات تفقد صاحبها الوعي والتركيز؟

إن واقـــع حياته ﷺ وجوانب شخصيته وسيرته ومضمون وجوهر رسالته ليكذب هذا الإدعاء والسخف من الأقوال.

جـــ – ومما يؤكد أن ملكات الوعي الإنساني لرسولنا الكريم كانت في غاية اليقظة أثناء وبعد نزول الوحـــي عليه ﷺ ، وأن إدراكه الفكري والروحي أيضا كان في تمام التنبه ، أنه ﷺ كان إذا انفصـــل عنه الوحي حكي قل ما أوحى إليه بوعي تام وذاكرة حافظة . وليس هذا شـــأن المصروعين الذين لا يفيقون إلى ما يكون منهم عندما تصيبهم نوبات الصرع. إن المصـــروع وكما يقول العلامة الشعراوي رحمه الله: يفعل، وحين يفيق ينكر ما فعل ولا يذكـــره.. ولكن الذي حدث لمحمد ﷺ أنه كان حين يأتيه الوحي في منتهى الهدوء، وفي منـــتهى السكون، وفي منتهى الاستقرار، ولا يحدث لـــه إلا ما يحدث من اضطراب لا رجوع له.

لم يجـــربوا علـــيه في أثناء الوحي كلمة خرجت منه، ولا تفرقا في جوارحه.. فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكي كل ما أوحى إليه من الله تعالى.

والـــذي يدل على بطلان مزاعمهم – والكلام لشيخنا– : أن الوحي كان ينزل عليه بالنجم – أي المقدار الكبير – الطويل من القرآن فيستغرق وقتا طويلا ليحكيه ويقرأه، فـــإذا مـــا قرأه، وكتبه كتبة الوحي، عاد فقرأه في الصلاة، وحين يقرؤه في الصلاة كان يقرؤه كما كتبوه عنه، فهل هناك في الوجود واحد يستطيع أن يقول كلاما، قد يستغرق الساعة فأكثر، ثم يقال له: أعده كما قلته، فيعيده كما قاله؟

لا شك أنه حين قال فكتبوا عنه، وحين أعاد فكان كما كتبوا ، يقيم الدليل على أنه يصـــدر عن قضية ذكرها القرآن، هي قوله تعالى: "سنقرئك فلا تنسى" الأعلى: آية ٦، لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر.(٦٧)

ومـــلخص القـــول في هذه النقطة أن الصرع يعطل الإدراك الإنساني، وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس.

أما الوحي فهو سمو روحي أختص الله به أنبياءه ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يـــبلغوها للناس. وقد يصل العلم إلى إدراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال

وقـــرون، وقـــد يظل بعضها لا يتناوله العلم، ومع ذلك فتبقى حقائق يقينية يهتدي بها المؤمنون الصادقون.[٦٨]

ثانيا: القول بالهوس محض افتراء : ـــ

أمـــا الهوس الذي رمى به (لوبون) نبينا ﷺ فهو أيضا من الأكاذيب التي تتجافى مع الحقيقة وتصطدم مع ما هو مقرر وثابت تاريخيا، حيث لم ينقل أحد من الناس – حتى من الأعداء والخصوم – أن الرسول الكريم اتصف بمثل هذه الصفات قبل البعثة أو بعدها، فلم يكن من المتهوسين أو من ذوي السلوك الشاذ أو من الذين تعتريهم الوساوس والأمراض العصبية أو النفسية. والذين ناصبوه العداء وعارضوا دعوته ﷺ إبان ظهورها والذين أجهدوا أنفسهم في كيل الاتهامات له بالسحر أو الشـــعر أو الكهانـــة مـــارموه بـــالهوس ولا وصفوه بالمرض والوسوسة والصرع لعلمهم أن هذه الأوصاف أبعد ما تكون عن شخصية النبي العاقل الحصيف الذي اشتهر بينهم بالصادق الأمين.

ويـــبدو أن وصـــف ظاهرة الوحي الإلهي، وما كان يعترى النبي عند تلقيه من حالة خاصة ناشـــئة عـــن انسلاخه من البشرية الجسمانية واتصاله بالملكية الروحانية بالهوس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية على ضوء التحليل النفسي جهل خطير بحقيقة النبوة.[٦٩]

ثم يتســـاءل الدكتور نقرة وهو بصدد الرد على هذه الفرية الاستشراقية قائلا: أليس من مجازفـــة القول أن يعد (لوَبون) محمدا ﷺ من المتهوسين، ولم يثبت تاريخيا قبل البعثة ولا بعدها أنه كان من ذوي الوساوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التي لابد لها من انعكاسات وردود فعل.[٧٠]

ثم يقـــدم لـــنا الدكتور نقرة دليلا يؤكد من خلاله تهافت ما ذهب إليه لوبون الفرنسي، فيقول: ألم تشهد خديجة وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو في غار حراء لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع؟

"كـــلا والله لا يخـــزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم،وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضـــيف، وتعين على نوائب الحق".[٧١] فما أبعد هذا الكمال الإنساني عن الهوس الذي قد يملي على صاحبه مواقف غريبة، وأفعالا ينبو عنها الذوق السليم. ولكنه الجهل بحقيقة الدين واستعمال منهج النقد العلمي في موضوعه.[٧٢]

ولـــو رجعـــنا إلى حدث نزول الوحي على الرسول ﷺ لأول مرة في غار حراء – قبل أن يـــرجع إلى زوجـــه خديجة– واستحضرنا ما جرى في هذا الحدث من رؤيته ﷺ لملك الوحي رأى العـــين، وسماع صوته، والرد على أمره له بالقراءة بقوله: ما أنا بقارئ وجريان هذا الحوار بينهما مقـــرونا بضم الملك له عليه الصلاة والسلام، فهل يعقل أن تكون كل هذه الأحداث صادرة عن واحد من المتهوسين؟

وهل يمكن – كما يقول مالك بن نبي– للاختلاط أو الهلوسة أن تؤدي أصواتا؟ ومع ذلك فـــإن الرؤية تتكرر آمرة: أقرأ، هذا الحوار الغريب والرؤية التي تسبقه وتصحبه وتلحقه يشكلان الأساس الأول الضروري للنبي في نظر النقد الذاتي لحالته، فها هي الظاهرة تحت سمعه وبصره فهو يرى ويسمع.. ويصبح الكلام واضحا تماما، مهما احتوى المضمون الأول الصادر عنه من الغرابة، إذ هو أمر القراءة موجه إلى أمي.(٧٣)

وما دام الأمر كذلك فأي فرق بين تقولات المشركين في الجاهلية وتفسيرهم لظاهرة الوحي عندما يترل على الرسول، وما يناله عند التلقي من جهد وعناء بالجنون أو السحر تارة، وبالشعر أو الكهانة تارة أخرى ، وبين تفسير المستشرقين الأكاديميين بالوحي من الوجهة النفسية أو العقل الباطن أو نحو ذلك مما اخترعوه وانتحلوه كالهوس الذي يزعمه (لوبون).(٧٤)

ثالثا: الوحي حقيقة خارجية يقينية لا خيالية أو لا شعورية : ـــ

تـــبقى شـــبهة الوحي النفسي التي تجعل الوحي صادرا عن جهة من جهات ذات محمد هي الخـــيال الخـــلاق أو اللاشعور أو اللاوعي الجماعي.. إلخ ما ردده (واط) وأمثاله من المستشرقين وسنقف مع هذه الشبهة عدة وقفات على النحو التالي:

١– مع تقديرنا لاعتراف (واط) بصدق النبي وتنزهه عن مظاهر الصرع والجنون التي رماه بها غيره من المستشرقين كما ذكرنا من قبل، إلا أننا نعجب من صنيعه وهو المؤرخ المؤمن غير المـــلحد الذي درس سيرة النبي بحياد وموضوعية ملتزما المنهج العلمي في البحث ، كيف يفســـر ظاهـــرة الوحـــي المحمدي على هذا النحو السالف الذكر وبين يديه وقائع الوحي وحقائقه الثابتة في أصح وأهم الوثائق التاريخية الدينية، وهي بمعطياتها تتناقض مع ما ذهب إليه.

ولـــو رجعنا إلى خطوات منهجه التي أشرنا إليها سابقا لوجدنا التناقض واضحا والخروج على المنهج الحيادي الموضوعي صارخا.

فاعترافه بصدق النبي ﷺ ثم إشارته إلى أنه لا يلزم من صدق الإنسان أن يكون مصيبا فيما يقول، بل يمكن أن يكون صادقا ومع ذلك مخطئا، كلام صحيح. ولكن الصحيح أيضا كما يقـــول الدكـــتور شيخ إدريس.[٧٥] أن الرجل المعروف بالصدق إذا قال كلاما فنبغي أن يصـــدق، إلا إذا قامت شواهد قاطعة تدل على أنه أخطأ. ويمكن حصر هذه الشواهد فيما يلي: ـــ

أن يكـــون ما قاله مخالفا لصريح المعقول، أن يكون ما يحكيه مخالفا لأمر حسي مشاهد، أن يكون مخالفا لما قرره عدد من الناس في مثل أمانته واطلعوا على ما اطلع عليه.. لكن واط لا يذكر شيئا من هذا صراحة، ثم يقرر دونما تريث أو تثبت وتحقق أن محمدا مخطئ في إدعائه أن القـــرآن وحي خارجي، والنتيجة أن القرآن صدر عن جهة من جهات نفس محمد هي اللاشعور الجماعي. وكأنه يقفز من القول بإمكانية الخطأ إلى افتراض الخطأ ثم إلى اعتقاده، فهل بعد هذا تناقض؟

٢- إن مســـألة اللاشـــعور الجماعي الذي عزا إليه (واط) ظاهرة الوحي المحمدي تفرض علينا تحريـــر هذه المصطلحات والكشف عن مدلولاتها حتى لا يختلط علينا الأمر ونقع في اللبس عـــلى إثـــر استخدام الكلمات في غير مواضعها. وبناء عليه يصبح لزاما علينا كما يقول الدكـــتور صبحي الصالح: أن نقصى عن ظاهرة الوحي لفظ الكشف وما يشبهه من ألفاظ الإلهـــام والحدس الباطني والشعور الداخلي أو اللاشعور ، التي يحاول البعض أن يفسر بها ظاهرة الوحي المحمدي.

فمـــا أيسر أن نثبت مدلول الكشف لكل من يدعيه، ثم تنكر عليه مدلول الوحي ولو ظل يدعيه. إن هذه الكلمات السابقة مهما اختلفت مسمياتها فإنها غالبا ما تكون ثمرة من ثمار الكـــد والجهد، أو أثرا من آثار الرياضة الروحية، أو نتيجة للتفكير الطويل، فلا تنشئ في الـــنفس يقينا كاملا ولا شبه كامل، بل يظل أمرا شخصيا ذاتيا لا يتلقى الحقيقة من مصدر أعلى وأسمى.[٧٦]

إن الكشف كما يقرر مالك بن نبي كالإلهام من ألفاظ علم النفس المحدثة التي ما تبرح حتى عند القائلين بها موغلة في الإبهام لاحتلالها حاشية اللاشعور وهي حاشية- كما يوحي اسمها- أبعد ما تكون عن حالات الحس والشعور ، فإذا قيل في إنسان: إنه من أولى الكشف والإلهام لم يسم به ذلك إلى درجة النبوة والوحي. للتباين بين كل منهما، فالكشف أو المكاشفة تعني المعرفة المباشرة لموضوع قابل للتفكير ، أو خاض فيه التفكير فعلا، بينما يجب أن يأخذ الوحي معنى المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير وأيضا غير قابل للتفكير.

ومن الوجهة العقلية لا تنتج المكاشفة عند صاحبها يقينا كاملا، بل تخلق نصف يقين أي بعض ما يؤدي إلى ما يسمى احتمالا.. أما يقين النبي فقد كان كاملا مع وثوقه بأن المعرفة الموحي بها غير شخصية وطارئة وخارجة عن ذاته.. وبالتالي ففي كل وحي وعيا وفي كل نبوة شعورا بمعناها وإدراكا لمغزاها ، وإنما يرمى باللاوعي من فقد الوعي، ويوصم باللاشعور من حرم الشعور.(٧٧)

٣- ومما يؤكد أن الوحي المحمدي حقيقة خارجية لا بشرية أن النبي ﷺ كان في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلا فيحرك به لسانه وشفتيه طلبا لحفظه وخشية ضياعه من صدره، ولم يكن ذلك معروفا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها. ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزورون كلامهم في أنفسهم ، فلو كان الوحي المحمدي منبجسا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم.. ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيا ويلم به سريعا، بحيث لا تجدي الروية شيئا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شئ وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيا.. وهذه شواهد ناطقة بصدق الرسول ﷺ في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه.(٧٨)

٤- ومن ناحية أخرى فإن طبيعة الحقائق الدينية والأخبار الغيبية في ظاهرة الوحي تأبى الخضوع لهذه الأساليب اللاشعورية التي تستشف حجاب المجهول بالفراسة الذكية الخفية والحدس الباطني السريع، مثلما تأبى الخضوع لمقاييس الحس الظاهرة التي تخترق حرمات المجهول

بالأدلة المنطقية والاستنباط المتروي البطئ، وإنما تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين: ذات متكلمة آمرة، معطية، وذات مخاطبة مأمورة متلقية.[٧٩]

٥- أضـــف إلى ذلك هذه الدلائل التي تؤكد خارجية الوحي وعدم بشريته كما تصور معظم المستشـــرقين، وهـــي الدلائل المستوحاة من الآثار التي تعرض لها وشعر بها نفر من صحابة الرسول الكريم رضوان الله عليهم أجمعين على غرار ما حدثنا به سيدنا زيد بن ثابت قال: أنـــزل الله على رسوله وفخذه على فخذي فثقلت حتى خفت أن ترض فخذى)[٨٠] ، وما روتـــه أم المؤمـــنين عائشة رضي الله عنها قالت: وإن كان ليوحي إليه على ناقته فتضرب جرانها، من ثقل ما يوحى إليه)[٨١]

هذه الآثار أو الشواهد وغيرها يكشف زيف المستشرقين الذين صورا الوحي على أنه نتاج بشـــري ينتمي إلى اللاوعي أو الخيال أو الإلهام النفسي.. إلخ وإنا لنجد في هذه الشواهد (دلائـــل إضـــافية تبين أن الوحي خارج عن إرادة محمد ﷺ ، مهيمن على ذاته، فإن هذه الأعـــراض الجســـدية وآثارها على الغير لا يمكن أن تستجلب ولا أن تدفع. ويزيد هذه الحقـــيقة جـــلاء سماع الرسول ﷺ صوتا يبلغ آذان الجمهور حوله كدوي النحل. وهذا يكشـــف عـــن تغايـــر ظاهـــرة الوحي تغيرا تاما عن أي تكلف شخصي)[٨٢]. مما أدعاه المستشرقون.

وأخيرا فإن ما ادعاه (واط) من إمكانية الجمع بين اللاوعي الجماعي وبين الآراء الإسلامية التقلـــيدية بأن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي المسمى باللاوعي، وأنها برزت من هنا إلى وعيه فهو إدعاء باطل ومتناقض.

إن هذا الكلام صادر من إنسان لا يتصور ما يقول . متى وضع الملك هذه الكلمات؟ هل وضعها قبل حادثة حراء؟ وأية مدة؟ وما الدليل التاريخي على ذلك؟

وإذا كان (واط) قد قبل أن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدية، فما فائدة نظرية اللاوعي المشترك؟

لمـــاذا يضعها الملك في اللاوعي أولا ثم يدعها تبرز إلى الوعي ويجعل محمدا يتخيل أنه يرى ملكـــا يحدثه بكلام لم تكن له به صلة من قبل؟ إذا كان من الممكن أن تكون الكلمات من الملك، وإذا كان من الممكن أن يضعها في اللاوعي ، فما الذي يمنع من وضعها في الوعي منذ البداية؟

وإذا كانـــت الكلمات من ملك فمعنى ذلك أنها شئ جديد لم يكن يعرفه محمد ولا مجتمعه، ولكن نظرية اللاوعي المشترك كما يشرحها صاحبها (يونج) وكما يوافقه عليها (واط) تقتضي أن تكـــون هذه الآراء معبرة بطريقة ما عن المجتمع ومتوافقة مع مشاعره ومصالحه، ومصاغة بمقولاته ومبنية على مسلماته.[٨٣]

وهكـــذا تتضـــارب الآراء وتتناقض الأقوال وتتهاوى المزاعم الباطلة للمستشرقين حول الوحي المحمدي، هذا الوحي الذي تؤكد الدلائل العلمية والمعطيات التاريخية الموثقة في كتب السنة والسيرة على أنه وحي كان (ينـــزل على محمد حين يشاء رب محمد، ويفتر إذا شاء له رب محمد الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والأسجاع، ولا تقدم عواطف محمد ولا تؤخر في أمر السماء.

أمـــا وإنه لم يك لهذه المفارقة الواضحة بين شخصية النبي وظاهرة الوحي إلا حل (نفساني) واحد على طريقة الماديين من قدامي ومحدثين: فليفترضوا تزود النبي الأمين بشخصيتين : إحداهما واعـــية شاعرة، والأخرى لا واعية ولا شاعرة، أو بعبارة أخرى: ليفترضوا في نفس محمد ازدواج الشعور واللاشعور.

فهـــل لباحـــث منصـــف أن يعترف لأصحاب هذا الافتراض بمسكة من عقل أو ذرة من شعور؟.[٨٤]

المبحث الثالث: موقف المستشرقين من القرآن الكريم : ــ

القـــرآن الكريم هو كتاب الله الخالد وهو الذكر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـــن خلفه تنزيل من حكيم حميد، والذي كان نزوله على قلب النبي محمد ﷺ فتحا عظيما في تـــاريخ الإنسانية وعاملا مهما من عوامل تطورها الحضاري. والقرآن هو دستور هذه الأمة الذي تقـــوم على أساسه عقائدها وتشريعاتها، وتنبثق منه قيمها وآدابها،والذي تكفل الله عز وجل بحفظه وصـــونه عن التحريف والتبديل وتطرق أيدي البشر إليه بالعبث أو الإخلال بلفظه ومبناه ، فهو معجزة خالدة ووحي معصوم ونص منـــزه ومقدس.

هـــذا مـــا يعتقده كل مسلم تجاه القرآن الكريم، أما المستشرقون فقد ذهب معظمهم إلى التشكيك في صحة القرآن الكريم وقدسيته وصدوره عن الله.[٨٥]

وبالـــتالي فقد بذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحيا من عند الله وإنما هو من تاليف محمـــد ﷺ [٨٦]، ومن نسجه عن طريق الوحي المزعوم والذي هو عبارة عن أحلام ورؤى وأوهام.[٨٧]

ويرتـــبط هذا الموقف الاستشراقي من القرآن الكريم بموقف المستشرقين من الوحي والنبوة المحمدية ارتباطا وثيقا كما وضحنا في المبحث السابق، فهذا الموقف فرع عن إنكار نبوة سيدنا محمد ﷺ وتفسير الوحي المنزل عليه تفسيرا ذاتيا بشريا لا صلة له بالسماء.

ويجئ هذا الرأي لاعن إسناد واضح أو دليل صريح، ولكنه يجئ تعصبا ضد القرآن ونبيه، أو عجزا عن فهم الوحي في تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية، أو في التشابه في موقف الفكر المسيحي الذي يرى أن الإنجيل ليس كتابا من السماء وإنما هو من عمل الرسل.[٨٨]

وطبقا لهذا المنهج المغلوط الذي لا يؤسس على أدلة علمية ولا ينهض على منطق عقلي نجد كثيرا من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة، يهملون ملاحظة أية مبادئ أولية يفترضها المنهج العلمي في معالجة المسائل التاريخية ، فهم يؤكدون أن القرآن من إنشاء محمد ﷺ ثم يذهـــبون مذهـــبا بعيدا في تأسيس الأحكام التاريخية والعقدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه التأكيدات بمجرد التكرار إلى مرتبة الحقائق الثابتة.[٨٩]

وما دام المستشرقون قد رفضوا التسليم بالأصل الإلهي للقرآن وطرحوه جانبا، وقرروا أن محمدا ببشريته ودون أدنى صلة إلهية هو الذي أنشأ القرآن وألفه، فقد راحوا يتلمسون له مصدرا آخر بعيدا عن الوحي الإلهي، وحاولوا استكشاف الأصول أو المصادر التي يمكن رد القرآن إليها في إطار ما هو بشري، مد عين الاعتماد في ذلك على الأسلوب العلمي التاريخي. وما هو بأسلوب علمي ولا بالمنهج المنطقي، ولكنها الفرية الاستشراقية التي انطلقت من الزعم بأن محمدا هو مؤلف القرآن ثم حاولت أن تكون محبوكة بقدر الإمكان ، وذلك ببيان المصادر التي اعتمد عليها محمد في كتابـــته للقـــرآن . ويذهب الخيال الاستشراقي في هذا الصدد كل مذهب لإثبات مزاعمه [٩٠]. وذلك على النحو التالي.

أولا: القرآن مقتبس من اليهودية والنصرانية: ـــ

ينســـب المستشرق المجري (جولد زيهر) المعرفة الدينية التي تلقاها محمد ﷺ إلى عنصرين: خارجي وداخلي فيقول : (فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها

بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرا عميقا، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة.. لقد تأثر بهذه الأفكار تأثرا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قـــوة الـــتأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيا إلهياً).[٩١]

ويـــرى (ريتشارد بل) مؤلف كتاب مقدمة القرآن أن النبيﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص. فبعض قصص العقاب كقصص عـــاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية.[٩٢]

ويـــرى المستشرق الفرنسي (بلاشير) أن التشابه الحاصل في القصص القرآني مع القصص اليهودي المسيحي يعزز بشرية القرآن وتأثره بالعوامل الخارجية، خاصة أنه قد استنتج هذا التأثير المسيحي واضحا في السور المكية الأولى، والناتج عن تلك العلاقات المستمرة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين بمكة.[٩٣]

ويسير (بروكلمان) في نفس الاتجاه قائلا: (وتأثرت اتجاهات النبي الدينية في الأيام الأولى من مقامه في المدينة، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود، وأغلب الظن أنه كان يرجو عقب وصوله إلى المدنية أن يدخل اليهود في دينه، وهكذا حاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي.[٩٤]

ويذهب (برنارد لويس)إلى ما ذهب إليه أسلافه من قبل فيقول: تثير مشكلة خلفية الرسول ﷺ كثيرا من التساؤلات، فمن الواضح أنه كان موضع تأثر باليهودية والنصرانية، وذلك لأن فكرة التوحيد والعناصر الكتابية الكثيرة في القرآن تثبت ذلك.. وروايته للقصص الكتابية تشير إلى أنه قـــد حصل على معلوماته الكتابية بطريقة غير مباشرة. ومن المحتمل أن تكون من التجار والرحالة اليهود والنصارى.[٩٥]

ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا على هذه الوجهة وهذه الطريقة، وكانت منطلقاتهم جميعا الادعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذي جاء منه القرآن، وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية؟ .. وهكذا نجد كتابات (بوهل) عن مادة محمد في دائـــرة المعـــارف الإســـلامية ، و (تويـــنبي) في بحث التاريخ ، ومن بعدهم (وارنر) و (جايجر)

و (لوري) كلهم يجرون على طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمي، ولكن عن هوى وتعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد، وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما.[٩٦]

دحض هذا الافتراء : ـــ

أ- ينطلق المستشرقون في ادعاءاتهم السابقة الرامية إلى إثبات الأثر اليهودي والنصراني على القـــرآن الكـــريم معـــتمدين – في ظنهم – على دليلين: أولهما : وجود تشابه بين كتاب الإسلام والكتاب المقدس خاصة في باب القصص وبعض الأحكام، والآخر: احتكاك النبي المباشـــر وغير المباشر باليهود والنصارى في مكة والمدينة والاستفادة من علومهم وثقافتهم، واتصـــاله ببعض الأحبار والرهبان وغيرهم من التجار اليهود والنصارى سواء في رحلاته وسفرياته خارج مكة، أو عند قدومهم إلى مكة وضواحيها.

وهـــي أدلة متهافتة تعوزها الحجة وتفتقر إلى المصداقية التاريخية والواقعية. فبالنسبة لبعض أوجه الشبه بين القرآن والعهدين القديم والجديد والتي لا نعترض عليها، بل نرفض النتيجة التي حاول المستشرقون ترتيبها والتوصل إليها من هذا التشابه . فالقرآن الكريم نفسه كما يقـــول مـــالك بن نبي: يؤكد مستعلنا صلته بالكتاب المقدس، فهو يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية، و هو بهذا وبذاك يثبت – باعتداد – التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهـــو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويلفت إليها النبيّ نفسه كلما جدت مناسبة، وهاك فيما نذكـــر آيـــة تنص بخاصة على تلك القرابة: (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)، يونس:٣٧.[٩٧] هذه الصلة التي يؤكدها القرآن، وذلكم التشابه الذي لا ينفيه كتاب الإسلام الخالد لا يدل كما زعم المستشرقون على أن القرآن مقتبس ومستفاد من الكتاب المقدس وغيره، بل يدل على العكس من ذلك تماما، إنه يشهد على أن القرآن كغيره من الكتب السماوية مصدرها واحد – مع تميز القرآن بحفظه الإلهي ، غير أن الاستشراق وفقا للأهواء التي تسيطر عليه – يعكـــس القضـــية، فبدلا من أن يـــرى في هـــذا التماثل وحدة المصدر يراه آية النقل والتأثر[٩٨].

ب- ويحـــق لـــنا هنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الزاعمين اقتباس القرآن من الكتاب المقدس قـــائلين: هـــل تكفـــي هـــذه النتف المقتطعة – من أوجه الشبه القصص–، والإشارات

والاســـتدلالات المعتسفة والتخمينات الذكية في هذه المسألة، فنحن نحتاج إذا الخيال قوى جـــدا حتى نفترض بأن محمداﷺ الذي أثبتت الأصول المنقولة أنه لم يكن يقرأ أو يكتب ، كان على التخطيط الذي ابتدعه المستشرقون لـــه: قد جلس عاكفا في مكتبته يبحث في كتـــب الأولين لينقل عنها لأجل تأليف الكتاب المعروف بالقرآن .. إن ما أريق من مداد ســـود صـــحائف المجلدات المتعددة عن أصول الإسلام لا يقدم دليلا مقنعا بالمعنى التاريخي الصـــارم بحيـــث يثبت أن مثل هذا الاقتباس قد حدث فعلا، بل على العكس فإن الشاهد المعاصـــر الوحـــيد الذي ما يزال باقيا هو القرآن نفسه، وهذا يستبعد مثل هذا الاحتمال بأقطع عبارة. ومن المستغرب أن هذا الشاهد الوحيد يطرح في الغالب جانبا.[٩٩]

ج- إن القرآن الكريم فعلا يتأبى على هذا الزعم الاستشراق ويرفضه بأوضح عبارة، لأن صلة القرآن بالكتب المقدسة لا تقتصر فقط على بعض الموضوعات المتشابهة في كل منهما، حيث يتمـــيز القـــرآن بأنه مهيمن على هذه الكتب وحاكم عليها (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) المائدة:٤٨

وبحكـــم هذه الهيمنة فقد وجه القرآن كثيرا من النقد لما ورد من تحريف لحق هذه الكتب على أيـــدي أصحابها في باب الإلهيات أو النبوات وغيرهما، فضلا عن ذلك فإن القرآن قد حوي من العلوم والمعارف والأحكام الاعتقادية والعملية مالم يرد له ذكر في هذه الكتب المقدسة، فكيف يدعى المستشرقون إذن أن القرآن مقتبس منها؟ إنه التناقض والحقد على الإسلام لا غير.

د- ومن باب التناقض الذي وقع فيه المستشرقون الذين يجادلون في مصدر القرآن ويرون أنه مـــأخوذ من اليهودية أو النصرانية، ويسلمون بإلهية مصدر هاتين الديانتين في الوقت الذي يدعـــون فيه بشرية المصدر القرآني. ويمكننا أن نقول لهم: ما المانع أن يكون القرآن وحيا أصيلا مأخوذا من النبع نفسه الذي اغترفت منه الديانات السماوية الصحيحة؟

ما المانع أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحي الإلهي الذي أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية؟

لمـــاذا تحرمون على الإسلام ما تبيحونه لليهودية والنصرانية؟ هل هو التعصب الأعمى، أم هـــي الكراهـــية لهـــذا الدين الذي جاء مصححا لما طرأ على الديانات السابقة من أوهام وأباطيل، وكاشفا لوجه الحق فيها؟

هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا؟

إنه إذا كان هذا المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والنصرانية وتمنعه عن الإسلام ، وإذا لم يكن مسلما به فلا مجال للديانات جميعا؟[١٠٠]

٥- وأخيرا لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن الكريم كما يزعم المستشرقون لكان اليهود أعرف الناس بهذا، وهم من هم خبثا وحقدا على كل نبي ورسول، ولقد كانت صداقتهم للمشركين فرصة لمساعدتهم على الطعن بوحي القرآن وبيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة.[١٠١]

ثانيا: الإدعاء بأن النبي أخذ القرآن من بحيري الراهب : ـــ

إن هذا الزعم من قبل نفر من المستشرقين قول عار عن الصحة وخال من البرهان، ويتبين خطل هذا الرأي من عدة وجوه منها:[١٠٢]

١- إنها دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين. ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من بحير الراهب؟ ومتى كان ذلك وأين كان؟

٢- إن الروايات التاريخية التي قصت علينا نبأ لقاء النبي بهذا الراهب تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد ﷺ ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها، ثم ينصب نفسه أستاذا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذا لأستاذين وهادي الهداة المرشدين، وإلا كان هذا الراهب متناقضا مع نفسه.

٣- لو كان هذا الراهب مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم.

٤- يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضح النضح الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف ، بحيث يصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقا راهبا من الرهبان مرتين.

٥- إن هـذه الـتهمة لو كان لها نصيب من الصحة لفرح بها قومه، وقاموا لها وقعدوا، لأنهـم كـانوا أعرف الناس برسول الله، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة.

ثالثا: مصدر جديد للقرآن متمثل في الحنفاء والشعر : ـــ

يحاول المستشرقون هذه المرة أن يفتشوا عن أصل للقرآن داخل البيئة التي تربى وعاش فيها صاحب القرآن محمد ﷺ ، بعد أن أعيتهم الحيل في إثبات نسب خارجي للقرآن متمثل في التوراة والإنجـيل وأتـباعهما من اليهود والنصارى . وها هو (برنارد لويس) يقول: تروى السنة بعض الأخـبار عـن الحنفاء الذين لم يرتضوا دين قومهم الوثني ولم يقتنعوا لا بالنصرانية ولا باليهودية، فيجب أن نبحث عن أصول محمد ﷺ عند هؤلاء.(١٠٣)

ويشارك لويس في هذا الرأي (هاملتون جب) حيث أشار إلى ارتباط الرسول ﷺ بالأحناف، وأن الإسلام كان يطلق عليه الحنيفية أولا، ثم أصبح اسمه فيما بعد الإسلام.(١٠٤)

أما المستشرق (كليمان هوار) فقد كتب فصلا زعم فيه أنه اكتشف مصدرا جديد للقرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت.(١٠٥)

الجواب عن هذه الشبهة: ـــ

أ- هذه الشبهة لا تقل عن مثيلاتها سخفا وتهافتا وافتئاتا على المنهج العلمي، فالإدعاء بأن فكر ومعـتقد الحنفاء في عصر النبي ﷺ كان المنبع الذي استقى منه محمد القرآن ثم ادعى بعد ذلك أنه وحي من الله، قول مبنى على مجرد افتراض خيالي دونما سند من الواقع أو أثارة من علم.

ومن حقنا هنا أن نتساءل: من هم هؤلاء الحنفاء الذين استقى منهم الرسول معلوماته؟

في وسـط الجموع العربية ذات الجهل المفضوح، كانت تتميز صفوة قليلة العدد تعرف في الأثـر باسم (الحنفاء) ، أي الثائرين على الرأي العام.. وبعد هذا ماذا كانت دعوة هؤلاء المصلحين السابقين لمحمد؟

يقيـنا لا شـئ، سوى أنهم أناس متمردون على عصرهم، لأن إشراك مواطنيهم وعاداتهم القاسـية وإباحيتهم ، لم تكن لترضى عنه نفوسهم، فتطلعوا إلى دين صحيح ظاهر حاولوا

التماسه خارج محيطهم، ولم يكن عندهم عنه أية فكرة دقيقة قادرة على أن تنبئ عن دعوة القرآن ولو من بعيد.[١٠٦]

ب- قـــوم بهـــذا الوصـــف وعلى هذا النحو لا يمكن أن يكون القرآن الكريم امتدادا لفكرهم ومعتقداتهم. ذلك أن تعاليم وعقائد الحنفاء تتميز بالغموض والإبهام أولا، وأنهم كانوا قليلي العدد بحيث لم يكن لهم ذلك التأثير الكبير على البيئات التي كانوا يعيشون فيها ثانيا.[١٠٧] إن كل ما يمكن استخلاصه من وجود هؤلاء الحنفاء أنه كان يوجد في ذلك الوقت نوع من القلق والانتظار المبهم، الذي كان يتفاعل في هذه النفوس الممتازة نتيجة مشاعر وتوقعات ورغبات غير محددة.[١٠٨]

فـــإذا مـــا تركنا الحنفاء بعقيدتهم الغامضة وتوجهاتهم الغير محددة لعدم وجود كتاب معين يسيرون على هديه ويتبعون تعاليمه، ويممنا وجوهنا نحو القرآن الكريم فسوف نجد الصورة على العكس من ذلك تماما.

إن العقـــل الإنساني ليقف فعلا حائرا أمام رحابة القرآن وعمقه، إنه بناء فريد ذو هندسة ونسب فنية تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان. إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، حيـــث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هـــذا القـــانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق.[٤] لا كما يزعم المستشرقون مؤلف للقرآن ومستفيد من المصادر الداخلية أو الخارجية في تأليفه لكتاب يتأبى على قدرة البشر أصلا.

ج- أما الافتراض الآخر الذي يزعم تأثر النبي في تأليفه للقرآن بشعر أمية بن أبي الصلت، فهو افتراض من الصعب قبوله هو الأخر لافتقاره إلى السند العلمي الصحيح وبالتالي فإن إدعاء (كلـــيمان حوار) أن أحد مصادر القرآن الكريم هو شعر أميه، فهو ادعاء لا يسنده أساس علمي صحيح، ولا يرتكز على قاعدة علمية لا يمكن دحضها، ويمكننا ملاحظة عدة أمور تشـــهد بتهافت هذا الزعم من كليمان هذا، أولها: أن أمية لم يدع الأصالة ولا الإلهام ، بل

إنه كثيرا ما عبر عن خيبة أمله وأسفه في هذا الشأن، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه قد اندفع إلى التقليد – لما جاء في القرآن– بروح المنافسة.

ثانيها : ـــ وعلى عكس ذلك، لقد أعلن محمد على مسمع من جميع معاصريه بأنه لم يتلق علمه من بشر.

الثالث: لنأخذ في اعتبارنا موقف خصوم النبي في هذا الموضوع. فلقد كانوا دائما على يقظة لأقل ثغرة ليوجهوا من خلالها ضربتهم، ويحولوها إلى سخرية واستهزاء، ألم يكن من الأيسر لهـــم أن يضعوا يده على مسروقاته المفضوحة من شعر أمية الذي لم يكن قد جف مداده، يـــدلا من أن يوجهوا حججهم في كل اتجاه، وأن يلجأو إلى كل افتراض ، وصل إلى حد وصـــم الرسول بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة.(١٠٩) ومن هنا فإن القرآن الكريم الذي حوي من العلوم والمعارف والقيم التي تمدي للتي هي أقوم، والتي لم يحوها كتاب آخر من قبل ولا من بعد، لا يمكن أن يكون نابعا من ذات محمد واستعدادها الشخصي وتهيئها الروحي، أو مما اقتبسه من بيئيته من أهل الكتاب أو الحنفاء والشعراء وغيرهم.

وأي أمـــي في الـــتاريخ يقطع مرحلة الشباب هادئا لم يؤثر عنه علم ولا شعر ولا خطابة ولا وثـــبات الأبطال والزعماء، ثم ينفتح فجأة في الأربعين على عالم جديد، فيصلح أديان البشر: عقائدها وآدابها وشرائعها ، ويحدث ثورة روحية اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية ، في سن لا يتأتى لمن بلغ مثلها أن يبتدئ أو يبتدع فيها علما أو فنا أو يسن فيها شرعا، أو ينهض في العـــالم بـــانقلاب عظيم، مـــا لم يكن قـــد ظهر استعداده لـــه وأخذ مقدماته في ريعان الشباب.(١١٠)

إن المقارنة بين واقع حياة النبي قبل القرآن وبعده لتشهد بأن القرآن لم يكن إلا وليد وحي إلهـــي معصـــوم، وأن الرسول الكريم لم تكن لـــه هذه القدرة العجيبة على التأثير في دنيا الفكر والحضارة وعالم النفوس والأرواح إلا ببركة هذا الوحي الذي لا قدرة للبشر مجتمعين على مضاهاته والإتيان بمثله.

وبعـــد: فـــإن حديـــث المستشـــرقين عن النبوة والوحي حديث متنوع ومستمر، ويحتاج استقصـــاؤه الإحاطة به وتحليله وبيان ما فيه من نمث أو سمين إلى مجلدات، وما ذكرته هنا ليس إلا

غـــيض مـــن فيض، ولعل فيه ما ينبه إلى الخطر الكامن في تصور الحركة الاستشراقية عن الوحي وموقفها من نبوة نبينا ﷺ .

الهوامش:

١) معجـــم مـــتن اللغـــة، الشـــيخ/أحمد رضا، جـــ٣، ص٣١٠، طبعة دار مكتبة الحياة ببيروت ١٣٧٨هـــ-١٩٥٩م.

٢) المعجم الوسيط. معجم اللغة العربية. جـــ١، ص٤٨٠، ط دار المعارف ١٩٧٢.

٣) الاستشـــراق بين المصطلح والمفهوم . د/حسين نصار، مقال بمجلة المنهل السعودية، عدد رقم/ ٤٧١ الصادر في ١٤٠٩هـــ-١٩٨٩م ، جدة، صـــ١٢.

٤) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا د/ميثال جحا صـــ١٥، ط معهد الإنماء العربي بيروت، ١٩٨٢م.

٥) المرجع السابق، ص١٧ .

٦) نفس المصدر ، ص١٦.

٧) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة د/مصطفى ماهر ص١١ -١٢، ط دار الكاتب العربي بالقاهرة.

٨) الاستشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلية د/أحمد محمود هويدي ، ص١٥، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٩) الاستشراق والفلسفة الإسلامية د/محمد حسين أبوسعده، ص٢١، ط أولى ١٩٩٥م.

١٠)إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص٧، ط مكتبة عمار بالقاهرة.

١١)دفـــاع عـــن العقـــيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين صـــ٨، ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٩٥هـــ-١٩٧٥م .

١٢)أوروبا في مواجهة الإسلام، ص١٠٩، ط مكتبة وهبة ١٩٩٣م.

١٣)من مقال له بعنوان: الاستشراق ماله وما عليه ، مجلة المنهل السعودية ص١٥، عدد ٤٧١.

١٤)أجنحة المكر الثلاثة ص٨٣، ط دار القلم ، ١٩٧٥م.

١٥)عقائد وتيارات فكرية معاصرة د/محمد الجليند وآخرون ص١٥٥ ط دار قطري بن الفجاءة قطر ١٤١٣هـــ - ١٩٩٣م.

١٦)الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه صـــ٥-٦ ط دار الوفاء بالمنصورة ، ١٤١٥هـــ-١٩٩٥م.

١٧)الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري صـــ١٨، ط مؤسسة الرسالة – سلسلة كتاب الأمة ١٩٨٥م.

١٨)أنظر في ذلك : الاستشراق والتربية د/هاني محمد يونس بركات، ط٣١، ط دار الفكر بالأردن ١٤٢٤هـــ-٢٠٠٣م.

١٩)الاستشراق والفلسفة الإسلامية، صـــ٤٨-٤٩ .

٢٠)المرجع السابق، ص٤٨.

٢١)المستشـــرقون ومصـــادر التشريع الإسلامي د/عجيل جاسم النشمي ص١٠، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ١٤٠٤ هـــ-١٩٨٤م.

٢٢)الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧١.

٢٣)فلســـفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر/ أحمد سما يلوفتش ص٤٩. ط دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

٢٤)الاستشراق والفلسفة الإسلامية، صـــ٥١-٥٢ .

٢٥)د/الجليند عقائد وتيارات فكرية معاصرة، صـــ١٥٩.

٢٦)راجـــع العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري د/عبد الحليم عويس ص٢٤، ط مكتبة الفلاح بالكويت ١٤٠١هـــ-١٩٨١م.

٢٧)المستشـــرقون وتاريخ صلتهم بالعربية د/اسماعيل أحمد عمايرة، مقال بمجلة المنهل السعودية عدد ٤٧١، صـــ٩١.

٢٨)الخلفية التاريخية للإستشراق. د/محمد بركات البيلي، المرجع السابق، ص١٣٦.

٢٩)الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧٢.

٣٠)إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص١٢.

٣١)فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، صـــ١١٩-١٢٠.

٣٢)الاستشراق والفلسفة الإسلامية، ص٨١.

٣٣)فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص١٢٠.

٣٤)الأزمنة التي نشط فيها الإستشراق د/محمود زقزوق، مقال بمجلة المنهل السعودية، ص٢٠٥.

٣٥)فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص١٢٠.

٣٦)الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق مجلة المنهل ص٢٠٥.

٣٧)عقائد وتيارات فكرية معاصرة. د/الجليند وآخرون صـــ١٦١.

٣٨)فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، ص٥١.

٣٩)الاستشراق والفلسفة الإسلامية ، ص٧٢.

٤٠)فلسفة الاستشراق وأثرها ص٥١.

٤١)دور المستشـــرقين في خدمـــة التراث الإسلامي د/ سامي الصقار، مقال بمجلة المنهل السعودية، ص١٤٣.

٤٢)موقـــف المدرســـة العقلية من السنة النبوية /الأمين الصادق الأمين جـــ١، ص٤٤٩، ط مكتبة الرشد بالرياض ١٤١٨هـــ- ١٩٩٨م.

٤٣)الفكر الاستشراقي د/ محمد الدسوقي، صـــ ٨٢-٨٣.

٤٤)أعـــلام النـــبوة / الإمـــام أبي الحسن على بن محمد الماوردي ، ضبط وتعليق/محمد المعتصم بالله البغدادي، ص٩٦، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٧هـــ-١٩٨٧م.

٤٥)راجع: من قضايا النبوات في الفكر الإسلامي للباحث ص٦-٧، ط مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا ٢٠٠٥م.

٤٦)القـــرآن والمستشـــرقون د/التهامي نقرة ضمن مجموعة أبحاث في كتاب : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية جـــ١، ص٢٧، ط المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٤٧)الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية د/ساس على الحاج ، جـــ٢، ص٣٥١، ط مركز دراسات العالم الإسلامي ١٩٩١م.

٤٨)القرآن والمستشرقين ، جـــ١، ص٢٧.

٤٩)تـــاريخ الشـــعوب الإسلامية، تأليف كارك بروكلمان، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ص٣٦، ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٣م.

٥٠)حـــياة محمـــد تأليف واشنجتون أرفنج، ترجمة وتعليق د/على حسن الخربوطلي، ص٥٥، ط دار المعارف بمصر.

٥١)القـــرآن والمستشـــرقون د/ التهامي نقرة ص٢٧، جـــ١ من مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية.

٥٢)الوحي المحمدي ، الشيخ/محمد رشيد رضا صـــ١٢٤-١٢٥، ط المكتب الإسلامي .

٥٣)المرجع السابق، صـــ١٣١-١٣٢.

٥٤)الظاهرة الاستشراقية د/ساسي الحاج جـــ٢، ص٣٦١.

٥٥)المستشـــرقون والقرآن ، أ/أنور الجندي ، ص٢٠٤، ضمن مجموعة أبحاث قدمت للندوة العلمية عن الإسلام والمستشرقين بالهند، وقد طبعت الأبحاث في كتاب بعنوان : الإسلام والمستشرقون ، ط عالم المعرفة بجدة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥٦)الوحي المحمدي ، ص٤٦.

٥٧)حياة محمد ترجمة د/الخربوطلي صـــ٥٥-٥٦.

٥٨)المرجع السابق، صـــ٥٨-٥٩.

٥٩)المستشـــرقون والقـــرآن الكـــريم، أ/ أنور الجندي، صـــ٢٠١-٢٠٢، ضمن كتاب: الإسلام والمستشرقون ، ط عالم المعرفة جدة، ١٩٨٥م، وأيضا: موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية جـــ١، ص٤٧٠.

٦٠)حضارة العرب د/جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر صـــ١١٣-١١٤، ط عيسى الحلبي .

٦١)المرجع السابق، ص١١٤.

٦٢)مـــنهج مونـــتجمري واط في دراسة نبوة محمدﷺ د/جعفر شيخ إدريس ص٢١١، ضمن أبحاث المجلد الأول من مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية.

٦٣)منهج مونتجمري واط د. جعفر شيخ إدريس ، جـــ١، ص٢٣٤.

٦٤)النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن د. محمد عبد الله دراز ص٧٢، ط دار القلم – الكويت، ١٣٩٠هـــ-١٩٧٠م.

٦٥)الـــنبي محمد إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء . أ/عبد الكريم الخطيب، صـــ١٣٩-١٤٠، ط دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت ١٣٩٥هـــ-١٩٧٥م.

٦٦)شـــبهات وأباطـــيل خصوم الإسلام والرد عليها، جمع وترتيب عبد القادر أحمد عطا، صـــ٣٥، ط دار العودة بيروت ١٩٨٨م.

٦٧)الظاهرة الاستشراقية د. ساس الحاج، ج٢، ص٣٦٠

٦٨)القرآن والمستشرقون، د. التهامي نقره جـــ١، ص٢٨-٢٩.

٦٩)المرجع السابق، جـــ١، ص٢٩.

٧٠)الحديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي من حديث عائشة رضي الله عنها.

٧١)القرآن والمستشرقون، جـــ١، ص٢٩.

٧٢)الظاهـــرة القرآنية ص١٤٨، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـــ-١٩٨٠م.

٧٣)القرآن والمستشرقون د. التهامي نقره ، جـ١، ص٣٠.

٧٤)منهج (واط) في دراسة نبوة محمد ، د / جعفر شيخ إدريس . جـ١، صـ٢١١-٢١٢.

٧٥)مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح، ص٢٦، ط دار العلم للملايين بيروت، ١٩٧٧م.

٧٦)الظاهرة القرآنية صـ١٣٩-١٤٠،وأيضا : مباحث في علوم القرآن د.صبحي الصالح، ص٢٦-٢٧

٧٧)النبأ العظيم د. دراز صـ٣١-٣٢.

٧٨)مباحث في علوم القرآن . د. صبحي الصالح، ص٢٧.

٧٩)أنظر صحيح البخاري كتاب الصلاة باب ما يذكر في الفخذ.

٨٠)رواه الإمام أحمد والبيهقي في الدلائل : والجران: باطن العنق.

٨١)وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة. د. حسن ضياء الدين عتر ص٢٠٩، ط دار المكتبي دمشق، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٨٢)منهج (واط) في دراسة نبوة محمد ، د. إدريس ، جـ١، ص٢٣٤-٢٣٥.

٨٣)مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح، ص٣٨ .

٨٤)الظاهرة الاستشراقية ، جـ٢، ص٣٠٦.

٨٥)الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٨٢.

٨٦)المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي ، ص٣١.

٨٧)المستشرقون والقرآن أ/ أنور الجندي ، ص٢٠٠، من كتاب الإسلام والمستشرقون.

٨٨)المستشرقون الناطقون بالإنجليزية د.عبد اللطيف الطيباوي، ترجمة وتقديم د. قاسم السامرائي ص٢٩، ط جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٨٩)الاستشراق والخلفية الفكرية صـ٨٤.

٩٠)العقيدة والشريعة، ص٥-٦

٩١)الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٨٤.

٩٢)الظاهرة الاستشراقية جـ٢، ص٣٢١.

٩٣)تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٦.

٩٤)الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي د. مازن بن صلاح مطبقاني ، ص١٣٢، ط مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٩٥)القرآن والمستشرقون . أ/ أنور الجندي ، ص٢٠٦.

٩٦)الظاهرة القرآنية ، ص١٨٩.

٩٧)الفكر الاستشراقي. د. محمد الدسوقي، ص٩٢.

٩٨)المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، د. الطيباوي ص٣٢، ٣٣.

٩٩)الاستشراق والخلفية الفكرية ص٨٦-٨٧.

١٠٠)القرآن والمستشرقون . أ. أنور الجندي ص٢٠٦

١٠١)مناهل العرفان في علوم القرآن ، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني جـ٢، ص٤٢١- ٤٢٣.، ط الحلبي بمصر.

١٠٢)الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي د. مازن مطبقاني ، ص١٣٧.

١٠٣)المرجع السابق، ص١٣٧.

١٠٤)القرآن والمستشرقون د. التهامي نقرة جـ١، ص٣٣.

١٠٥)مدخل على القرآن الكريم د. دراز، ص١٣١-١٣٢، ط دار القلم بالكويت١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٠٦)الظاهرة الاستشراقية، د. ساسي الحاج، ص٣٢٨.

١٠٧)مدخل إلى القرآن الكريم، د. دراز ص١٣٢.

١٠٨)الظاهرة القرآنية / مالك بن نبي ص١٨٨

١٠٩)مدخل إلى القرآن الكريم، د. دراز ص١٤٣-١٤٤.

١١٠) الوحي المحمدي، ص٣٠٢.